جسد الكتابـة كتابـة الجسـد
مقاربة سيميائية عرفنية للفضاء في أيام طه حسين

د. حسان راشدي
جامعة سطيف 2 (الجزائر)

في الوقت الذي بدأت تجف فيه منابع تحليل الخطاب سيما في مصادره النظرية، أخذت العلوم العرفنية (Les sciences cognitives) تكشف عن مصادر جديدة للبحث من شأنها أن تسعف تحليل الخطاب بأدوات ومناهج تتولى إماطة اللثام عن البعد العرفني للخطابي (la dimension cognitive du discursif). وهذا ما يطلق عليه كبار عارفي تحليل الخطاب " المنعطف العرفني لتحليل الخطاب (Le tournant cognitif de l'analyse du discours).

ولعل أهمّ تحد تجابهه البحوث العرفنية في مجال تحليل الخطاب، هو وصف طبيعة التمثيل المنسجم الذهني (la représentation mentale) المبني من لدن القارئ. وهو التمثيل السيميائي (représentation sémiotique) المرهون بفهم الخطاب أو النص.

ومن أهم المواد التي يوظفها القارئ لبناء التمثيل الذهني، المعلومات الفضائية (informations spéciales)، حيث تستحيل هذا الأخيرة في الخطاب والخطاب السردي على الخصوص إلى صيغة للرؤية (espace –mode de vision).

وبهذا الصدد، يلعب الوصف دورا أساسا في رسم معالم الفضاء، أو بالتدقيق "أثر فضاء" (effet-espace) في بناء التمثيل الذهني للقارئ. وهو الوصف الذي يحوّل المعلومات الفضائية بوساطة الإدراك (perception) إلى تمثلا ت فضائية ملموسة. حيث الوسط الذي تنفعل وتتفاعل فيه الشخصيات وتتحرك في عالم الخطاب التخييلي.

في هذه الدراسة نبتغي مقاربة سيميائية عرفنية (approche sémio-cognitive) للتنظيم الفضائي في رائعة "طه حسين" "الأيام" (الفصل الأول من الجزء الثاني) حيث تستحيل الروائح، الألوان، والأصوات إلى كتابة: **كتابة الجسد، جسد الكتابة** .

أولا: الإطار النظري:

1.المنعطف العرفني والعلوم المحايثة:

في كل مرة يتجلى فيها مصطلح جديد، أو تصطنع فيها شبكة جديدة للتحليل في حقل اللسانيات، إلا وأثار ذلك نقاشا وجدلا بين اللسانياتيين. وذلك من حيث أسس هذا التوجه الجديد، من حيث خصوصيته الإجرائية، وعلاقاته بالعلوم ذات الصلة.

ولعل أهم حركة عرفتها اللسانيات في المنتصف الثاني من القرن العشرين، تلك التي نتجت عن تأثرها بمـــا يعرف ب "العلـــوم العرفنيـــة"، (sciences cognitives)، (cognitive sciences). وهذا ما يسمى بـ **"المنعطف العرفني"** (Le tournant cognitif).

المنارة للاستشارات

وهو المنعطف الذي أخذ يثمر بحوثا خصيبة منذ نهاية سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي.[2]

وقد كانت القوة الدافعة لهذه البحوث هي العزم على اعتبار المعارف الإنسانية (connaissances humaines) وبخاصة الذكاء الإنساني (L'intelligence humaine)، إجراءات تعالج بموجبها المعلومة (information)، وهذا انطلاقا من استعارة أو مجاز احتسابي (métaphore computationnelle). [3]

2.1. علم أم علوم عرفنية؟

ثير استعمل مصطلح "علوم عرفنية"، (sciences cognitives)، بصيغة الجمع تساؤلا إبيستيمولوجيا، فيما يتعلق في مدى "علمية" هذا الصنف القشيب من البحوث. وذلك باعتبار أن صفة "علم"(science)، لا تطلق على الحقل الذي يجمع بين علوم مختلفة (interdisciplinarité). فصفة العلم في العادة تطلق على المجال الواحد المميز بخصائصه المفاهيمية والمنهجية، وإن كان يأخذ من مجالات أخرى، فبالقدر الذي يحافظ على إنيته ويحافظ على انسجامه وديناميته.

ودفعا لأي لبس في هذه القضية يقترح في هذا المجال مصطلح "بحوث عرفنية" (recherches cognitives). وهذا ما فتح الباب أمام العلوم العرفنية لتلج العلوم الإنسانية والاجتماعية على الخصوص. وهي ذات العلوم التي تتوسل في معظمها منهجية في البحث والتحليل هي تحليل الخطاب (analyse du discours).[4]

وقد كانت العلوم العرفنية في ثمانينيات القرن الماضي بمثابة روح جديدة استلهم منها تحليل الخطاب قوة دفع جديدة. ذلك أن العلوم العرفنية أخذت على عاتقها الكشف عن الاشتغال الطبيعي للبنى، وللأفعال، والإجراءات الذهنية المكونة للتمثيلات (représentations) ومقاصدها، وباختصار علاقات المعجم بالدلالة.

وباعتبار أن الخطاب قائم على تمفصل (articulation) بينه وبين سياقه، وهو السياق الذي يلتمس أساسا في السياق التلفظي (contexte énonciatif)، فإن المخاطبة (L'interlocution) وهي مبتغى الخطاب، ومرجعيته (référence) التي يستقيم بها ويكتسب انسجامه، ومنطقه، وحجيته، وتدرجه الموضوعاتي (progression thématique). وهي الشروط الملموسة التي ينجز فيها الخطاب.

والواقع أن الخطاب هو بدوره قائم على التمثيلات الذهنية، بيد أن تحليل الخطاب وبخاصة ذو التوجه البنيوي، يقف عند النشاط اللغوي الظاهر أو الشكلي. والحال أن التمثيلات الذهنية تنتمي إلى لغة جوانية ذات خصائص هي نفسها التي تتوفر عليها اللغة الشكلية. والخطاب إلى جانب ذلك "موضوع مُبَنْيَنٌ (objet structuré)، سواء من حيث العلاقات الداخلية -المصرح منها والضمنية-التي تربط مكوناته، أم لأن معالجته تقتضي توظيف ترسيمات عرفنية للمعارف (schémas cognitifs de connaissances) خاصة أو عامة.[5]

يضاف إلى هذا أن الخطاب عبارة عن ممارسات لغات مختلفة كالحوار والحوار الذاتي، المكتوب والشفهي...الخ وهو ما يفتح المجال للتحليل العرفني. ولكن ما هي الزاوية التي يتم منها وبها التحليل العرفني للخطاب، أو علـى حـد تعبيـر " جان ماري شيفر"

المنارة للاستشارات

(Jean-Marie Schaeffer) "المعالجة العرفنية للخطاب السردي" (Le traitement cognitif du discours narratif).

2. قرايس، سيرل: المنعطف التداولي والعرفنة:

وعند هذه المحطة، يجد الباحث نفسه مضطرا تحت ضغط شروط المنهجية ومتطلباتها العملية، أن يسترفد مجالا غير بعيد عن اللسانيات وهو التداولية (La pragmatique). وهذه المرحلة هي التي يسميها علماء اللسان ومحللو الخطاب المنعطف التداولي (Le tournant pragmatique) إذ من نتائجها أن خففت من الهيمنة التي كانت تمارسها البنيوية على اللسانيات.

ومما عزز من هذا الاتجاه بلوغ نظرية الأفعال اللغوية (Les actes de langage) في توجهها السيرلي [نسبة إلى سيرل] (searlienne) أوج مجدها وشهرتها بين علماء اللغة ورواد تحليل الخطاب. وقد عزز هذا المنعطف التداولي لتحليل الخطاب، رواج علم الدلالة التوليدي (La sémantique générative) الذي كان خير حليف للتداولية بوساطة تلك الشروح العملية والوظيفية التي قدمت للوقائع النحوية.[6]

وهكذا تخلصت الدراسات اللسانية من ربقة البنوية الخانقة بتسنينها لعملية التواصل، وهو الأمر الذي كان قد دعا إليه "قرايس" (Grice) من قبل. وكذا نكرانها لأي تفسير براني للغة وفصلها عن السياق والعرفنة (cognition)، أصبح المناخ مهيأ لأن تعلب العلوم العرفنية دورها في مجال تحليل الخطاب والنصية بوجه خاص، والعلوم الإنسانية والاجتماعية بوجه عام.

ومن أهم نتائج الأعمال التي قدمها "قرايس"، الفصل بين اللسانيات والتداولية. ومن ثم شهدت الدراسات اللغوية انبثاق مقاربة جديدة، هي نظرية الملائمة (Théorie de la pertinence). ومعلوم أن أهم فرضية لنظرية الملائمة تقوم على أن الفكر الإنساني يبحث على الدوام عن الآثار العرفنية (effets cognitives) بما يبذل من جهودد عرفنية (efforts cognitives) في الانتباه ومعالجة للمعلومات وكلاهما من مجسدات الملائمة.

وبهذا التحول النوعي في النظر إلى التواصل، انتقل الاهتمام من العناية بالعلاقة بين عناصر الفعل التواصلي، إلى التركيز على العرفنة في حد ذاتها. أي التمثيل الذهني والعمليات المعرفية (opérations cognitives).[7]

وقد استتبع هذا الاهتمام بالعرفنة، نزوعٌ نحو الكشف عن العلاقات التي تتأسس بين العرفنة من جهة والأنساق السيميائية (systèmes sémiotiques) من جهة ثانية. وهذا ما جعل نظرية الملائمة نظرية عرفنية، ونظرية تداولية في الوقت عينه. وقد التقط محللوا الخطاب فكرة الملائمة ليجعلوا منها مبدأ أساسا من مبادئ تحليل الخطاب ذي الاتجاه التداولي.

3. السيمائيات والعلوم العرفنية

عند وصولنا إلى هذه المحطة من البحث، وجدنا أن العلوم العرفنية قد تداخلت أيضا مع نشاط علمي معرفي آخر كانت له صولاته وجولاته المهيمنة في حقل العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية إبان سبعينيات القرن الماضي، وهي السيميائيات.

المنارة للاستشارات

غير أن طبيعة الموضوع الذي نحن بصدد النبش فيه وعنه تفرض علينا المنهجية المتبعة فيه، ألا نتيه وراء التفاصيل، بقدر ما يسعفنا التلميح إلى ما يخدم غرضنا في هذه الورقة. فالأمر عندنا ليس البحث في السيميائيات باعتبارها نظرية عامة للدلالة، ولكن استكشاف ما نتج عن السيميائيات من موجهات، ومعالم تفيدنا في دراسة العرفنة.

وبما أن أفضل حقل للسيميائيات والسيميائيات القريماسية على الخصوص، هو السرديات. ومعلوم أن السردية (narrativité) عند قريماس تعتبر بصفة عامة المبدأ المنظم لكل خطاب ولكل بنى سردية، وأنها المكون الرئيس للمستوى العميق للسيرورة السردية

1.3 سردية قريماس، والسيمائية العرفنية:

إن ما نروم البحث فيه وعنه في السيميائيات القريماسية، هو تلك الإشارات التي أبداها زعيم مدرسة باريس السيميائية فيما يتعلق بالوشائج التي تتقاطع فيها السردية بالعرفنة. فالدارس الحصيف لآراء قريماس السيميائية، يدرك أن الأسس التي بنيت عليها نظرية قريماس في السيميائيات، يمكن لها أن تستخدم لتفسير عملتي توليد، وفهم البنى الدالة (structures signifiantes). [08]

فبالفعل فقد أرشدت أعمال قريماس الباحثين إلى حقول السيميائيات، إلى أن الفكر الإنساني يمتلك بنية سردية (structures narratives) تتجلى في شكل حكايات (récits)، وأساطير (mythes). وهي التي يشترك فيها كل الناس، يبنونها على منوال واحد وإن اختلفت المضامين بحكم اختلاف الثقافات. ومثل هذا التصور القريماسي هو الذي مهد الطريق للتحليل العرفني للسرد. [09]

وفي واقع الأمر فإن قريماس بهذا الطرح يكون قد سار في الاتجاه نفسه الذي سار فيه "رولان بارت" (Roland Barthes). ففي مقاله الافتتاحي "مدخل التحليل البنيوي للحكايات"[10] (introduction L'analyse structurale des récits) سنة 1966، فلقد لاحظ "بارت" أن حكايات العالم هي من العدد الكبير ما لا يمكن أن يحصيها عدٌّ فحسب، ولكنها دائمة التواجد زمانا ومكانا أيضا، سواء أفي المستوى الثقافي أم التاريخي. فهي صنو الحياة، عبر تاريخية (transhistorique)، وعبر ثقافية (transculturelle).

ولقد تتابعت الأعمال التي تأثرت بأفكار بارت في الحكي، في التأكيد على الأهمية الأنتروبولوجية (anthropologie) للحكي. فالحكي وهو صنف خطابي عالمي، يرتبط بالهوية الجماعية للمجموعات الإنسانية، كما أنه يُمكّن الفرد من التعرف على هويته الذاتية، وهي هوية مبنية بوساطة السرد، أو لنقل مبنية سرديا [11].

وهذه نقطة ارتكاز ومنطلق كل تحليل سيميائي عرفني للخطاب السردي. ولعل ما يعضد هذا الاتجاه في النظر إلى الحكي (السرد) ما ذهب إليه "جان بطيطو" (Jean Petitot)[12] وهو يعالج البنى السردية من منظور عرفني، خلص إلى أن هذه الأخيرة، تتم معايشتها وجوديا بوساطة العواطف، الاديولوجيات، الأفعال، والأحلام. وهي بهذا الوضع يمكن اعتبارها بنى سيميائية سردية (structures sémio-narratives)، ولتعتبر بمنظور عرفني عام من بنى التخييل الأنتروبولوجية (Structures anthropologiques de l'imaginaire) [13]

2.3. الإجراءات العرفنية عند قريماس

المنارة للاستشارات

يعتبر "قريماس" أن البنى السردية، تقود بشكل مباشر نحو الفكر، وهذا يفتح الباب واسعا أمام السيميائيات لتبْيان أن السردية تُشكل العرفنة والثقافة. وتستند نظرية قريماس السيميائية السردية إلى فكرة جوهرية وهي أن العرفنة تتشكل وفق إجراء ذي ثلاث خطوات يرتبط بعضها ببعض. وهي: (14)

الخطوة الأولى: وتتمثل في التسنين الصورتي (encodage figuratif) للعالم. وهو الذي يتم تمثيله في المستوى العميق، أو البنية العميقة. وهو المستوى الذي تبنى فيه المعرفة.

الخطوة الثانية: وهو الذي يتم فيه التنظيم المقطعي (séquentielle) لوحدات البنى العميقة. وهذا بحسب السياقات التي توجد فيها.

الخطوة الثالثة: وهي التي تمثل مستوى السطح، أو البنية السطحية. حيث تتولى الصيغة السردية، تحويل البنى العرفنية الكامنة في المستوى العميق، حيث مستوى المعرفة، إلى بنى خطابية.

والذي يستفاد من نظرية قريماس من استرفاد العلوم العرفنية للسرديات، هو أن هذه الأخيرة هي الأداة والمنهج العلمي لدراسة العلاقة بين السردية والعرفنة. فعند "قريماس" لا تعكس الحكايات ما يحدث في الواقع أو في الخيال بطريقة بسيطة ساذجة، بل الأمر أكثر تعقيدا من ذلك. فالحكيات أو الحكي، تستكشف وتستقرئ وتتكهن ما يمكن أن يحدث أو ما يحتمل حدوثه. (15)

كما أن عمل الحكي، لا ينحصر في عملية سرد الأحداث وعرض الحالات بالمعنى البسيط، وإنما الذي يعنى بها لحكي هو الطريقة أو الكيفية التي يتم بها سرد الأحداث وعرض الحالات. وهي التي تتمثل في ال كيف؟ (le comment)، لا ال "ماذا؟ (le pourquoi)" فسرد الأحداث تأويل لها أيضا. ذلك أن السردية تعمل على ترتيب وتنظيم الأحداث ضمن تيار زمني معلوم، وهي الأحداث التي كانت في حالة عماء (chaos) من قبل.

ولعل من أهم مقومات عالم الحكي ومكوناته الفضاء أو الحيز، فالفضاء وهو بناء تخيللي استيهامي (construction imaginaire fantasmée) ملتصق بشكل شديد بآليات الوصف ومحدداته وهو لذلك معدود من الصيغ (espace mode)، ويُعْزى للتمثيلات السيمائية (représentations sémiotiques) في الخطاب السردي .

وما يعنينا من مقاربته عرفانيا، هو كونه ناسجا لهوية الشخصيات، مثلما أنه نسق عرفاني منسوج هو الآخر بفعل القراءة التحليلية، وفي حالة بحثنا هذا التحليل النفس عرفني لاستقبال الخطاب السردي (réception du discours narratif) في أيام طه حسين بشكل عام، وللفضاء بشكل خاص. هذا ما يحاول المبحث الآتي الإشارة إليه.

المنارة للاستشارات

4. الفضاء السيمائي العرفني

يرى "قريماس" بمعية "كورتاس" في" السيميائيات. القاموس المُعقْلن لنظرية اللغة. أن "مصطلح" (espace)، (space) مستعمل في السيميائيات بموافقات مختلفة بيد أنها ذات مخرج مشترك. وهو كونه بمثابة موضوع مبني.."[16]. ومن هذا نفهم أن الفضاء أو الحيّز، تشكُّلٌ سيميائيٌّ (dispositif sémiotique)، محصلته بنية حاملة للدلالة، وهي الدلالة التي يُنْعَتُ بها الفضاء ويوسم بها؛ فنقول مثلا فضاء الخوف، فضاء العنف، فضاء السعادة الخ..

وبهذا الصدد نذكر تلك الثنائية في مجال تحليل الخطاب السردي، المتمثلة في السرد/ الوصف. حيث أن العنصر الأساس في السرد هو الزمن، في حين نجد أن الفضاء قرين بالوصف ونتاج له. وهو هو في المحصلو بنية لبناء هو الوصفي (le descriptif) . وعليه فإن إدراج الوصف ضمن النسيج السردي، فليعْلم بالتالي بالمكان حيث يخلد الحكي إلى شيء من السنة (pause)، حيث يأخذ تمثيل (représentation) الأشياء، والأماكن، والشخصيات.. حظه من الحيز النصي.

وفي ظل المنظور السيميائي العرفني، لا يُنظر إلى الفضاء على أنه غاية الوصف ومنتهاه، ولكن يُعتبر عنصر بناء مثل بقية عناصر النص السردي الأخرى، إذ لا يمكنه ألوقوف في الحياد، أو يستعمل لمجرد الزينة كإطار تتحرك فيه الشخصيات وتضطرب في جوفه الأحداث.

وإنما الفضاء -مع كل هذا – عنصر له أهمية ومساهمته في بناء الدلالة، دلالة الخطاب أو النص. وعليه، فإنه عنصر أساس في نسق دالة، ينطبع في أذهان الذوات (sujets) التي تتفاعل معه وتنفعل به، خارجيا وداخليا. وهذا مع التذكير وفقا لما ذهب إليه "قريماس" و"كورتاس" أن "التموضع الفضائي (localisation spatiale)، الموجود على مستوى التداولي للخطاب، يجب أن يميز عن التفضية العرفنية (spatialisation cognitive) التي تقتضي استثمار الخصائص الفضائية"[17] وأهم مقوم لهذه الخصائص هو الحواس الإنسانية؛ من السمع (L' « entendre »)، والحديث (« le «dire)، واللمس (le « toucher»)، الخ.. [18]. هذا ما نحاول الكشف عنه بالتحليل في القسم التطبيقي من هذا البحث.

ثانيا: القسم التطبيقي

1. المنظور العرفني للفضاء والتفضية في أيام طه حسن .

يقسّم "ميرلو بونتي" في كتابه "الظاهراتية والإدراك" (Merleau Ponty: Phénoménologie de la perception)[19] الفضاء (espace)، إلى ثلاث طبقات أو دوائر. الفضاء الفيزيائي (espace physique)، وهو الذي يقع خارج الجسد أو الفضاء البراني، الفضاء المُدْرك (espace perçu)، والذي هو بناء المخ (cerveau). ويُشدّد " ميرلو بونتي" على أن هذا الأخير ليس فضاء وهميا، وإنما هو الذي يساعد المرء على أن يتعامل

المنارة للاستشارات

ويتفاعل مع الفضاء الفيزيائي. ثم الفضاء المعيش (espace vécu)، وهو فضاء الجسد الخاص أي الفضاء الذي يصطنعه الجسد لنفسه، وهو محصلة تفاعل الجسد بسائر حواسه مع المحيط الخارجي من جهة والبناءات الذهنية (constructions mentales) للتجارب الحسية والإدراكية والشعورية.

ووجود هذه الفضاءات الثلاثة، لا يعني أنها منفصلة عن بعضها البعض، إذ أن لكل واحد منها نصيبا من التأثير وقدرا من التأثير للفضاءات الأخرى. وقد لخص "ميرلو بونتي" فكرته هذه بقوله: "ما دام لي جسد، وما دمت أسعى به في العالم [...] فلجسدي عالمه، أو أنه يفهم عالمه..." [20]

ولكن إذا تناولنا الموضوع من زاوية عرفنية بحتة، فإننا نلفي أنفسنا نميل إلى وضع خيط ولو رفيع، ولكنه مُدْرَكٌ، بين الفضاء الفيزيائي من جهة والفضاءين المعيش والمدرك. ذلك أن العرفنة لصيقة أيما التصاق بعلم النفس العرفني، الذي لا يجعل عالم الداخل مجرد مرآة لعالم الخارج بل بناء نفسي ونفساني مختلف وإن تفاعل مع الفضاء الخارجي أو الاجتماعي أو السياق (contexte).[21] وفي المحصلة يمكن القول: إن الفضاء نتاج مخ الإنسان، وهو ليس خارجا عنه، فهو إدراكه، وهو معيشه.

وهكذا نجد أن علاقتنا بالعالم الخارجي أو الفضاء الفيزيائي تتم عبر الجسد، والفضاء بدوره صورة يجسمها الجسد من التجارب والمدركات الحسية وغير الحسية. ومن ثمة يصبح الجسد في حد ذاته فضاء بعينه. [22]

1.1. الفضاء والسيرة الذاتية

إذا تجاوزنا – لضيق مقام البحث، وخشية الإخلال بمنهجيته-النقاش حول "الأيام" هل هو سيرة ذاتية أم رواية، فإن ما قد يشفع لنا ذلك هو أن تناول الفضاء من المنظور العرفني ليس حكرا على الرواية وحدها بل هو يغشى الأدب وغير الأدب من العوم الطبيعية والرياضيات والموسيقى وغيرها كثير. فهل هناك ما يمكن تسميته ب "الفضاء السيرذاتي" (Espace autobiographique) ؟

إن الأمر بالنسبة ل"فيليب لوجان " (Philippe le jeune) وارد ومبرر. وهو يقصد ب "الفضاء السيرذاتي" "الإطار العام الذي يرغب مؤلف العمل الروائي في أن يُقرأ نصه التخييلي، ضمنه قراءة سيرذاتية مرجعية"[23]. ومن هذا الباب لا يرى "فيليب لوجان" كبير فرق بين السيرة الذاتية المبطنة بمسحة تخييلية، والرواية، ذلك أن عنده كلتاهما تتقاسمان الميثاق الإستيهامي" الذي يقترب بالرواية من السيرة الذاتية، دون أن يجعلها تمتزج بها، ويقترب بالسيرة الذاتية من الرواية دون أن يجعلها تستولي عليها.

ويجعل "فيليب لوجان " من النص الروائي موضوعا ذا طابع ثنائي مزدوج يجمع الفضاء السيرذاتي بهويته التخييلية وهويته المرجعية."[24] وهكذا فإن تحليل الفضاء في الخطاب السيرذاتي يصبح شغوفا بالبحث في التفضية (spatialisation) وآلياتها قصد تأسيس البعد العرفني (dimension cognitive)، المتعامد مع البعد التداولي (dimension pragmatique) ولكنه ليس متماثلا معه." [25]

المنارة للاستشارات

2.1. الفضاء الصيغة في الأيام

وباعتبار أن البحث يروم إلى مقاربة عرفنية للفضاء السردي، فإن اعتباره فضاء صيغة رؤية (espace-mode vision)، ينسجم مع الطرح العام لهذا البحث. ولقد شرح هذه الفكرة بشكل عملي "جيرار جونيت" في كتابه "خطاب الحكاية/ أوجه ثلاثة"،[26] حيث يعتبر الصيغة وهي مصطلح مُستعار بالأساس من علم النحو، آلية أساس لتفتيق الدلالة في الخطاب أو النص السردي فعنده "يمكن أن نروي ما نرويه وفق وجهة النظر هذه أو تلك."[27] وهذا ما يطلق عليه مصطلح "الصيغة السردية" (mode narratif).

وهناك ضميمة أخرى لاستعمال مصطلح صيغة، وهي أن هذه الأخيرة تربط بمصطلحين آخرين، هما وجهة النظر (point de vue)، والرؤية (vision) التين تتجسدان بوساطة التمثيل (représentation). وهذا هو مجال الوصف، والفضاء في المحصلة.

يكشف هذا المقطع خاصية جوهرية في الخطاب الطه حسيني، وهي أنه خطاب صورتي (discours figuratif). ذلك أن النص يكاد يتوارى خلف الصور التي يرسمها الخطاب وهي "وحدات المضمون التي تُستخدم لكساء الأدوار الفاعلية، والوظائف التي تضطلع بها."[28]

وفي الجهة المقابلة يجد القارئ نفسه يكاد ينسى وأنه بصدد فعل القراءة، تحْدوهُ التصويرية (figuration) المنظمة للفضاء الخطابي لعالم تبنيه تجربته فانسجام الخطاب بهذا الواقع مرهون بقيام سلسلة من بناء من العلاقات بين الفضاءات الذهنية (espaces mentaux)، التي هي بدورها تسمح للقارئ أو المتلقي ببناء المعنى وفق الاتجاهات التي تتحكم في الوصف.

2. التنظيم الفضائي (للنص العينة)

في هذا المبحث نحاول رصد بعض الموجهات الإشارية للغة، التي من شأنها أن تدلنا على التنظيم الفضائي (organisation spatiale) للنص العينة.

إن الفكرة البديهية التي ننطلق منها وهي أن الخطاب بناء ذو مقصد تواصلي. حيث أن الذات المضطلعة بالخطاب تحمل وجهة نظر، توظفها في بناء " صيغة الرؤية (mode de vision) التي تعمل على موضعة (localisation) أشياء المكان بتحديد علاقات بعضها ببعض، وكذا علاقاتها بالفاعلين في عالم الخطاب. ويمكن لنا تصنيف صيغة الرؤية هذه، في الدوائر الآتية:

أ-<u>المستوى الأنتروبولوجي</u>: وهي التي الإشارة إلى موضع الذات الكاتبة (sujet écrivant) في إطار وجهة نظر مضطلعة بتنظيم الفضاء. وفي هذه الدائرة يتم الحديث المنظمات الجيهية، المتمثلة في المحورين: الأفقي، والعمودي.

- <u>المحور الأفقي</u>: - أمام/ خلف.
  - هنا/ هناك.
  - يمين/ شمال.
- <u>المحور العمودي</u>: - فوق/ تحت.

ب- <u>المستوى السوسيو-الثقافي</u>: يخضع تنظيم الفضاء أيضا إلى العلاقات بين فاعلي الخطاب، فذات الخطاب، أو الذات الكاتبة، تجعل من نفسها مرجعا (reference)، تصنف

المنارة للاستشارات

بموجبه الذوات الفاعلة الأخرى، والتي قد تنتمي إلى فئات من العمال والمزارعين، وأصحاب الحرف، والطلبة، ... وكلا المستويين؛ الأنتروبولوجي، والسوسيو- ثقافي يخضعان لمحددات الموضعة الفضائية (localisation spatiale).

3. الموضعة الفضائية:

لا يستقيم الحديث عن الموضعة الفضائية، إلا بالحديث عن الحركة (mouvement)، التي تؤول في المجال السيميائي، والسيميائي القريماسي على الخصوص، بأنها "الانتقال من فضاء إلى آخر، ومن مدة زمنية إلى أخرى، وبهذا تغدو الحركة قابلة لأن تتمفصل بحسب الوجهة (directionnalité)؛ الحركات التي من فضاء أو زمن المصدر، تُفْضي إلى فضاء أو زمن الوصول." (29)

وتتمثل الحركة أو الحركات تتمثل في الاقتراب من نقطة ما، أو الابتعاد عنها، المجيء من، الذهاب من إلى. الخ.. كما أنها تتمثل في إنجاز مسار ما (parcours)، حيث الحركات من مثل "المرور من أو على"، "العبور"؛ "عبور شارع "، "جسر"، "الانعطاف نحو اليمين"، "الانعطاف نحو الشمال "...

1.3. الموضعة والحركات في النص العينية:

- **المسار الأول: (من الأزهر إلى البيت)**

" فهو يسكن بيتا غريبا، يسلك إليه طريقا غريبا أيضا، ينحرف إليها نحو اليمين إذا عاد من الأزهر"

يرسم هذا المقطع الفضاء المعيش في بداية النص باعتباره الفضاء المرجعي (espace référentiel)، وهو المسار الذي يسلكه الراوي ذهابا بين البيت والأزهر وإيابا في مدة زمنية طويلة.

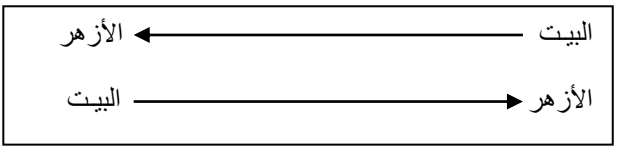

الشكل رقم:01

المنارة للاستشارات

والمسار بهذا الشكل يمثل دائرة مُغلقة، يبدأ حيث ينتهي، وهو لشدة رتابته وتكراره وغرابته يمثل الفضاء المغلق والخانق الذي يعيش في الراوي الواصف (narrateur descripteur). وهو إلى جانب ذلك فضاء الغرابة، سكنا وطريقا، وهي الغرابة التي سكنت أعماق الراوي، واستحكمت جسده فأضفاها على المكان الذي هو مكان الجسد. الجسد الذي يعيشه والذي يعيش به. إنه التماهي بين المكان والجسد، (الجسد المكان/ المكان الجسد).

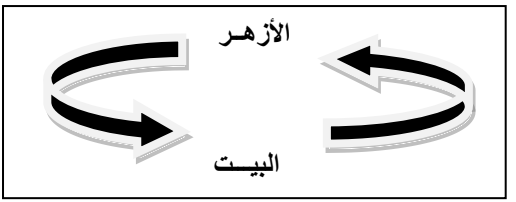

الشكل رقم:2

- **المسار الثاني: البيت وساكنيه.**

يدخل من باب يفتح أثناء النهار ويغلق في الليل [...] فإذا **مضى أمامه خطوات** وجاوز ذلك المكان الرطب المسقوف [...] **خرج إلى طريق مكشوفة**، ولكنها ضيقة قذرة [...] وكان صاحبنا **يمضي أمامه** في هذه **الطريق الضيقة**، وقلما كانت تستقيم له هذه الطريق. وما أكثر ما كان صاحبه ينحرف به ذات **اليمين** أو ذات **الشمال** ليجنبه عقبة قائمة هنا أو هناك [...] حتى إذا جاوز هذه العقبة استقبل الطريق كما بدأها **ساعيا أمامه** في خطى رفيقه قلقة [...] **ينحرف** بعد خطوة أو خطوتين إلى **الشمال ليصعد** في السلم الذي سينتهي به إلى حيث يقيم. [...] إذا صعد منه درجات فلا بد من أن ينحرف قليلا نحو **الشمال** ليمضي في **التصعيد** [...] و**يمضي مُصْعدا** حتى يبلغ الطبقة الثانية، [...] ينحرف نحو **اليمين**،... ويمضي في طريق ضيقة [...] ثم يبلغ الصبي بيته، **فيدخل** إلى **غرفة** هي أشبه بالدهليز [...]

المنارة للاستشارات

4. القراءة الجسدية لطوغرافية البيت:

يرسم لنا الراوي في هذا المقطع المسار الذي يقطعه الراوي /الشخصية (الواصف) من باب البيت (الحارة)، حتى يصل إلى غرفته. وقد اكتفينا في هذا المقطع برصد المحورين؛ الأفقي، والعمودي لحركة الراوي ضمن المسار الذي ينطلق من باب البيت، أو الحارة إلى غرفته.

غير أننا نلاحظ أثناء وصف المسار، أن الراوي/الواصف، يدرج بعض الملاحظات، أو التعليقات، يقدمها للقارئ الذي عليه أن يستعين بها لبناء تمثيله الذهني للفضاء. ذلك أن فهم الخطاب أو النص، هو في حقيقة أمره عملية بناء تدريجي لتمثيل ذهني منسجم لمضمونه. وتلك هي القراءة في جوهرها. ولعل أهم تعليق للراوي، يوجه قراءتنا لهذا المقطع هو قوله: " وما أكثر ما كان صاحبه ينحرف به ذات اليمين أو ذات الشمال ليجنبه عقبة قائمة هنا أو هناك [...] " نفهم من هذا أن الراوي كفيف، وأن الذي يأخذ بيده صاحبه.

ولعل هذا ما يجلنا نقرأ المقطع بطريقة مختلفة لو كان الراوي غير فاقد للبصر. ومثل عبارات: "ينحرف به"، "ليجنبه"، "ينحرف بعد خطوة أو خطوتين"، "فإذا مضى خطوات.." تعتبر في هذا المقطع بمثابة تقديمات (anticipations)، حركية وذهنية مخصوصة بفضاء الراوي (المعوق بصريا). وما التكرار للعبارات "ذات اليمين/ ذات الشمال"، "خطوة/خطوات" "يمضي أمامه" الخ ... إلا علامات على أن المسار الذي "يصفه" الراوي مصدره الذاكرة.

وهذه خاصية نجدها عند المكفوفين الذين يعتادون قطع مسار بعينه جيئة وذهابا، مرات عديدة، ولذلك فهم يخزنون انطباعات جسدهم بوساطة باقي حواسهم ليصبح المسار في المحصلة مسار الجسد. والذي يشي بهذا أن آليات الوصف التذكري ثابتة (invariables)، حيث يتم تذكر المسار اعتمادا على السير ضمن اتجاهات معينة رفقة قائد أو صاحب بصير. وبهذا تصبح قراءة المسار في محوريه الأفقي والعمودي مخصوصة هي أيضا.

يمكن لنا إذن، والحالة هذه، أن نحدّد عملية الاستذكار (mémorisation)، من خلال مرحلتين:

- **المرحلة الأولى**:

وهي التي يقدم فيها الراوي المعلومات التي يتم بوساطتها التعرف على السياق مخطط المسار. وهو المسار الذي سيغدو السياق الذي يحتضن الوصف والسرد.

"يدخل من **باب** يفتح أثناء النهار ويغلق في الليل[...] فإذا مضى أمامه خطوات وجاوز ذلك **المكان الرطب المسقوف** [...] خرج إلى **طريق مكشوفة**، ولكنها ضيقة قذرة [...] وكان صاحبنا يمضي أمامه في هذه **الطريق الضيقة** [...] **ينحرف** بعد خطوة أو خطوتين إلى الشمال **ليصعد في السلم** الذي سينتهي به إلى حيث يقيم. [...] ويمضي مُصْعدا حتى يبلغ **الطبقة الثانية**، [...] ثم **يبلغ الصبي بيته، فيدخل إلى غرفة.. "**

فالملاحظ في هذا الشاهد، أن ما تم استذكاره، هو:

1-نقطة البداية، بداية المسار "يدخل من باب... " ونقطة الوصول "... فيدخل إلى غرفة " نهاية المسار.

المنارة للاستشارات

2- المحاور التي يمر بها الراوي، من نقطة البداية إلى نقطة النهاية.

"[...] فإذا مضى أمامه خطوات وجاوز ذلك **المكان الرطب المسقوف** [...] خرج إلى **طريق مكشوفة**، [...]**الطريق الضيقة** [...] ينحرف بعد خطوة أو خطوتين إلى الشمال ليصعد في السلم الذي سينتهي به إلى حيث يقيم. [...] ويمضي مُصْعدا حتى يبلغ الطبقة الثانية، [...] ثم يبلغ الصبي بيته، فيدخل إلى غرفة.. "

- **المرحلة الثانية:**

والملاحظ بهذا الصدد أيضا، أن الوصف المقدم لهذه المحاور التي يجتازها الراوي هي التي يتخذ منها علامات يهتدي بها. وفي حالة فقدانه للبصر، نجده يعوض ذلك بالحواس الأخرى؛ بوساطة الروائح (الشم)، أو الأصوات (السمع)، أو الجلد (اللمس).

فإذا تجاوز هذا الباب **أحسّ عن يمينه حرّا خفيفا** يبلغ صفحة وجهه اليمنى، و**دخانا** خفيفا يداعب **خياشيمه** وأحس **من شماله صوتا** غريبا يبلغ **سمعه** ويثير في نفسه شيئا من العجب.[...] خرج إلى **طريق** مكشوفة، ولكنها ضيقة **قذرة تنبعث منها روائح غريبة**[...] حتى إذا جاوز هذه العقبة استقبل الطريق كما بدأها ساعيا أمامه في خطى رفيقه قلقة، **تأخذ أنفه تلك الروائح المنكرة**، و**تأخذ أذنيه أصوات مختلطة مصطخبة** [...] حتى إذا بلغ من هذه الطريق **مكانا بعينه سمع أحاديث مختلطة تأتيه من باب قد فتح عن شماله**، فعرف أنه سينحرف بعد خطوة أو خطوتين إلى الشمال ليصعد في السلم [...] يأتيه من هذا **الهواء الطلق** الذي كان يبيح له من التنفس بعد أن كاد يختنق من ذلك **السلّم القذر**، و**تأتيه من صوت تلك الببغاء** التي كانت تصوّت في غير انقطاع[...] كان صاحبنا إذا بلغ أعلى السلم استقبل الهواء الطلق بوجهه، ودعاه الببغاء إلى أن ينحرف نحو اليمين [...]

وهكذا يتبين لنا أن المسار مسجل في ذاكرة الراوي (الكفيف)، بما يحمله من حركات أفقية وعمودية، فضلا على ما انطبع في حواس الشم، اللمس، والسمع من آثار توجهه هي أيضا في سيره ذاك حتى يبلغ مبتغاه. فالقارئ يتتبع الراوي في سكنناه وحركاته وكأنه دليله يأخذ بيده وكأنه مغمض العينين، يسرع الخطوات حينا، ينعطف يمينا أو شمالا حينا آخر لسماع صوت معينا، أو لرائحة مميزة، يقطع طريقا أو ممرا، يصعد سلما...

كل ذلك والجسد يرسم تلك الحركات والسكنات، وحتى الخطى الرفيقة القلقة..، إنها ذاكرة الجسد، إنها قراءة الجسد للفضاء، إنها بناء الفضاء. فوجود الفضاء في هذه الحالة، مرهون بوجود الجسد. وعل هذا ما ذهب إليه "ميرلو بونتي" بقوله: ".. لا يمكن أن يكون هناك فضاء بالنسبة لي، إذا لم يكن لدي جسد." (30)

وفي المحصلة، لا يمكن أن يكون هناك جسد، ما لم تكن هناك حركة هي التي تجسد فضائية (spatialité) الجسد. ومن هذا فالفضاء ليس شيئا متعاليا (transcendantal) عند "ميرلو بونتي".

المنارة للاستشارات

1.4.فضاء الأذن: السمع والإنصات

وفي الاتجاه نفسه، يعتبر "رولان بارت" (Roland Barthes)، أن حاسة السمع قد تلعب دورا ليس بالقليل إزاء الحواس الأخرى. ويميز "رولان بارت" في هذا المقام بين "السمع" (Entendre)، و"الإنصات" (Ecouter). "السمع ظاهرة فيزيولوجية؛ الإنصات فعل نفساني. وإنه لمن الممكن وصف الملابسات الفيزيائية للسمع (آلياتها)، وهذا باللجوء إلى السمعيات (acoustique)، وإلى فيزيولوجية السمع (ouïe)؛ ولكن الإنصات لا يمكن أن يتحدد إلا بموضوعه، أو إذا أردنا صوبه (visée) ويمكن القول بهذا الصدد: إن الفضاء يتشكل بوساطة تجربة الإنصات." [31]

ومن هذا الباب نجد "رولان بارت" يميز بين ثلاثة مستويات من الإنصات: المستوى الأولى؛ وهو المستوى الطبيعي للإنصات. وهو الذي لا يتميز به الإنسان عن الحيوان[32]. وأما المستوى الثاني، فهو مستوى حل الرموز (déchiffrement)، أي" حل الرموز الملتقطة بالأذن، وهي العلامات؛ ومن هنا، بكل تأكيد، يبدأ الإنسان: أنصت مثلما أقرأ، أي بحســب سنن (codes) معينة." [33]. وهناك المستوى الثالث من الإنصات والذي هو – حسب بارت – "مقاربة حديثة جدا (وهذا لايني أنها تلغي الأخريين)، [...] والتي يطلب منها أن تتطور في فضاء بينذواتي (intersubjectif)، حيث "أنصت" تعني أيضا "أنصت إلي"؛ [...] إنها التدلال (signifiance) العام، والذي لا يعدُّ مقبولا بمعزل عن تحديد اللاوعي (l'inconscient)" [34]

> [...] أحس من شماله صوتا غريبا يبلغ سمعه ويثير في نفسه شيئا من العجب. [...] ثم فهم من بعض الحديث أنه قرقرة الشيشة يدخنها بعض تجار الحي [...] **تأخذ أذنيه أصوات مختلطة مصطخبة** تنحدر من عل وتصعد من أسفل، وتنبعث من يمين وتنبعث من شمال وتلتقي كلها في الجو[...] وكانت هذه **الأصوات مختلفة اشدّ الاختلاف**: أصوات النساء يختصمن، وأصوات الرجال يتنادون في عنف ويتحدثون في رفق، وأصوات الأثقال تحط وتُعْتل، أصوات السقّاء يتغنى ببيع الماء، وصوت الحوذي يزجر حماره أو بغله أو فرسه، وصوت العربة تئزّ عجلاتها أزّا، وربما شق هذا **السحاب من الأصوات** نهيق حمار أو صهيل فرس. [...] حتى إذا بلغ من هذه الطريق مكانا بعينه سمع أحاديث مختلطة تأتيه من باب قد فتح عن شماله، فعرف أنه سينحرف بعد خطوة أو خطوتين إلى الشمال ليصعد في السلم الذي سينتهي به إلى حيث يقيم. [...]

فالراوي في هذا المقطع، وبمنظور المستوى الثالث للإنصات عند "بارت"، يدعو القارئ إلى أن يبني فضاء مخصوصا بوساطة إنصاته هو لما يقوله الراوين لا أن يستمع له فحسب. ولذالك نجده يقدم لنا المادة الخام للأصوات، حيـــث تتولى المحفزات الصوتية (stimulations auditives).

المنارة للاستشارات

فمن خلال الأصوات المصطخة المختلطة الصادرة بدرجات متفاوتة ومن جهات مختلفة متضاربة، أصوات النساء والرجال، أصوات الحيوان، أصوات الآلات والأشياء كلها ذلك في فوضى وفي غير انتظام. لكن وصفها جاء بطريقة سلسلة مبلغة تنم عن وعي يقظ بفضاء خارجي. هذا الأخير يتشكل من خلال إنصات واع، إنها الأذن الواعية التي تحسن وضع الحدود بين ما هو خارجي براني، وما هو داخلي جواني. حيث لم يفتّ هذا الخارج العدواني من عضد الراوي/ البطل من أن يخلق لنفسه فضاء الإرادة والعزيمة. إنه فضاء الجسد الذي نعيشه لا الجسد الذي نعيش به.

2.4. فضاء الشم: كتابة الروائح، روائح الكتابة

إن الحديث عن فضاء الروائح، مثرٌ للجدل؛ إذ كيف للكتابة الأدبية أن تضطلع بتصوير ما ينقله الشم (odorat) من روائح، والتي هي في حقيقة أمرها غير مرئية (invisible)، وغير مسموعة (inaudible)، وغير ملموسة (intouchable). فأنى للأدب وهو مناط بالتوجه للفكر، أن يُعبّر عن الروائح وهي من المجال الحسي (sensoriel)؟

ولحل هذا الإشكال، يطرح الجسد نفسه وسيطا بين الأدب والروائح، ينقل هذه الأخيرة من خلال تجربة معيشة في علاقة جمالية تنصهر فيها تلك التجربة بالذات المعبرة. وهذا ما عناه "ج باشلار" (Gaston Bachelard) بمصطلح مخطط التحليل (topo-analyse). "مخطط التحليل، هو الدراسة النفسانية النسقية لمواقع حياتنا الحميمية."[35]. وإذ أن مخطط التحليل مرتبط أساس بالمكان باعتباره مرجعا للوجود، فإن المكان في هذه الحالة يصبح بمثابة منشط (catalyseur) للتجربة الحسية الشعورية التي تعيشها الذات. ليصبح المكان والجسد في نهاية المطاف شيئا واحد، إنه مكان الجسدي (lieu du corporel)، حيث تمحي ثنائية جسد/فكر. وليُصبح الفضاء، محصلة هذه العملية فضاء رمزيا (espace symbolique)، مُبطنا بقيم تُضفي عليها الذاكرة الدلالات المزعومة.

> [...] فإذا تجاوز هذا الباب أحسّ عن يمينه حرّا خفيفا يبلغ صفحة وجهه اليمنى، و**دخانا خفيفا يداعب خياشيمه**. [...] فإذا مضى أمامه خطوات وجاوز ذلك **المكان الرطب المسقوف** الذي لم تكن تستقر فيه القدم لكثرة ما كان يصب فيه صاحب القهوة من الماء، خرج إلى **طريق** مكشوفة، ولكنها **ضيقة قذرة تنبعث منها روائح غريبة معقدة لا يكاد صاحبنا يحققها، تنبعث هادئة بغيضة في أول النهار وحين يقبل الليل، وتنبعث شديدة عنيفة حين يتقدم النهار ويشتد حرّ الشمس.** [...] حتى إذا جاوز هذه العقبة استقبل الطريق كما بدأها ساعيا أمامه في خطى رفيقه قلقة، **تأخذ أنفه تلك الروائح المنكرة**، وتأخذ أذنيه أصوات مختلطة مصطخبة.[...] ولكن كثر التصعيد فيه [السلم] والهبوط منه و**لم يُتعهّدْ بالغسل ولا بالتنظيف**، فتراكم عليه تراب كثيف، ثم انعقد ولزم بعضه بعضا حتى استخفى الحجر استخفاء، وخُيل إلى المُصعد فيه والهابط منه أنه إنما يتخذ سُلما من الطين. [...] ويمضي مُصْعدا حتى يبلغ الطبقة الثانية، فلا يكاد يبلغها حتى **تجد نفسه** المكدودة **شيئا من**

المنارة للاستشارات

الراحة يأتيه من هذا الهواء الطلق الذي كان يبيح له من التنفس بعد أن كاد يختنق من ذلك السلّم القذر[...] كان صاحبنا **إذا بلغ أعلى السلم استقبل الهواء الطلق بوجهه**، ودعاه الببغاء إلى أن ينحرف نحو اليمين.[...]

الملاحظ في هذا المقطع، أن الروائح مرتبطة بالحركة، ولها استقلاليتها في المجال التصويري (figuratif)، ومن ثمة لأصبحت لها سلطة دالة (pouvoir signifiant) وقدرة على نقل أنساق القيم." فإذا تجاوز هذا الباب أحسّ عن يمينه ... دخانا خفيفا يداعب خياشيمه." فرائحة الدخان مرتبطة في هذا الوصف بالحركة ، حركة الانعطاف إلى اليمين.

كما يلاحظ من كيفية التعبير عن هذه الرائحة "دخانا خفيفا يداعب خياشيمه" أنها رائحة أليفة مألوفة أ ولما لا وهي المُداعبـــــــة لخياشيمه. يستأنس بها كونها تدله على بيته. وهنـــا الروائـــح المرتبـــط بالـــزمـــن والتـــي يمكـــن أن نسميهـــا "روائـــح زمكانيـــة" (odeurs espace-temps)، "خرج إلى طريق .. ضيقة قذرة تنبعث منها روائح غريبة معقدة لا يكاد صاحبنا يحققها، تنبعث هادئة بغيضة في أول النهار وحين يقبل الليل، وتنبعث شديدة عنيفة حين يتقدم النهار.." إنها الحركة اليومية المرتبطة بالروائح ودرجات شدتها.

أول النهار	حين يتقدم النهار	حين يقبل الليل
هادئة بغيضة	شديدة عنيفة	هادئة بغيضة

الشكل رقم: 03

إن هذا المقطع من النص المدروس، يثير مرة أخرى مسألة علاقة الخطاب التخييلي بالواقع المرجعي والمعيش. حيث نجده يتراوح بين النزعة الذاتوية (autotélisme)، كون جنس العمل الأدبي من السيرة الذاتية، وضرورة أن يقول الخطاب السردي العالم. وفي حالة العينة التي بين أيدينا نلاحظ أنه في مستوى الحكي (diégèse)، نلاحظ أن الواقع هو ما يعبر عنه الراوي الشخصية، من خلال تجاربه التي جمعها من تقلبه في الحياة الدراسية والاجتماعية وما كانت تنقله حواسه وكذا ما كان يزوده به المقربين إليه من معلومات كان يتمثلها في عالمه الخاص به، ويجعلها من مدركاته هو.

وعند هذه المرحلة يبني الراوي الشخصية ذاته، وتجربته التخيلية للواقع، وتتم القراءة حينئذ بمعالجة النسق الخطابي، القائم على الوصفي (descriptive)، والسردي (narratif) للتخييل.

هذا إذا قرأنا دلالة الروائح في المحور الأفقي. أما إذا سعينا إلى قراءتها ضمن المحور العمودي (أسفل/ أعلى) وهي هنا قراءة دلالية." فهل الروائح القذرة والطرق الضيقة، ... من مصير الطبقة السفلى المشكلة من الباعة والفلاحين والعمال...؟

3.4. فضاء السجن: الببغاء والقفص

لقد تبين لنا مما سبق عرضه من هذا البحث، أن فهم نص ما يُعدُّ في حد ذاته ظاهرة نفسية مركبة ومعقدة، بحيث تتعلق بالأفراد القراء أنفسهم، فضلا على المقام الذي تتم فيه عملية القراءة. وهي لذلك لا تثبت على صورة بعينها. وباضطلاع علم النفس العرفني بهذه

المنارة للاستشارات

القضية، قضية فهم النصوص، خلصت بعض الدراسات إلى الاحتكام إلى ما يطلق عليه "الاقتراحات الدلالية (propositions sémantiques)، وهي عبارة عن وحدات لسانية صغيرة، اسم، شيء، فعل،.. ينظر إليها على أنها مسندا إليه ، وتسمح بذلك بأن، تُلْبس دلالة ما لتصبح رمزا أو دلالة على أمر آخر. وهذا ما يطلق عليه في نظرية البناء الذهني بالنظرية الاقتراحي، أو الافتراضية (théorie propositionnelle) .

في نص العينة، أثار انتباهنا ذكر طائر "الببغاء"، من خلال وصف يمكن استثماره – حسب فهمنا – في مجال التحليل ألاقتراحي. فهو بحسب نظرية البناء الذهني (théorie de la construction mentale) يمثل نموذجا لمقام (modèle de situation) وهو النموذج الذي نجده في التمثيلات السردية بشكل متواتر، وهو بهذا يعد من أهم مفاتيح التأويلات والدلالات المنبثقة عنها بوساطة التحليل السيميائي، أو العرفني. ويتم بناء نموذج المقام، بوساطة قراءة نص ما، ولكن مع الأخذ في الحسبان الموضوع المُبأر (focalisé)، مكانته، وعلاقته بالمحيط الموصوف من جهة، والذات الواصفة من جهة ثانية. والوصف قد يكون حسيا أو إدراكيا بوساطة التجربة.

وفيما يتعلق بنص عينتنا، فلقد لفت انتباهنا ذكر "الببغاء"، باعتبارها مصدرا صوتيا، لا مرئيا، ومن ثمة كان وصف وقع صوت الببغاء، وما انطبعت معه من تأثيرات نفسية ممتزجة بتجربة الراوي الواصف بمثابة رسم لنموذج اقتراحي، لعبت فيه الترابطات العرفنية دورا أساسا في بناء فضاء ذهنية خاص هو ما يمكن أن نسميه "إسقاطا إستعاريا" (projection métaphorique) الزناد...

النص:

> تلك **الببغاء** التي كانت تصوّت في غير انقطاع، كأنما تُشهد الناس جميعا على ظلم صاحبها الفارسي الذي سجنها في ذلك **القفص البغيض**، ليبيعها غدا لرجل آخر يسجنها في **قفص بغيض** حتى إذا تخفف منها وقبض ثمنها اشترى بدلها خليفة تقوم في ذلك **السجن** مقامها تدعو فيه دعاءها وتنتظر فيه مثل ما كانت تنتظر صاحبتها: أن تُنقل من يد إلى يد و**من قفص إلى قفص**، وأن ينتقل معها **دعاؤها الحزين** الذي **يبتهج الناس به** من مكان إلى مكان.

نحن إذا، أمام عملية بناء أفضية ذهنية والحال أن "الفضاء الذهني بنية عرفنية تُبْنى فيها المجالات وتنتظم وتترابط بأنواع من الترابطات ما بين المجالات."[35]. ويمكن لنا من عبارات من النص أن نعيين الفضاءات الآتية:

-**<u>فضاء الرفض والإدانة</u>**: وهو الفضاء المنسوب إلى الببغاء التي "كانت تصوّت في غير انقطاع، كأنما تُشهد الناس جميعا على ظلم صاحبها الفارسي الذي سجنها في ذلك القفص البغيض" فالعبارة تبني فضاء ذهنيا، يختلف عن فضاء الواقع الخارجي.

وإن كان سمع الراوي الكفيف يستدل بصوت الببغاء ليستدير نحو غرفته والببغاء بها تسديه معروفا، فإن ذلك الصوت الهادي، يصبح لديه وهو الكفيف سجين الظلام، صوتا للرفض والتنديد حيث تصرخ الببغاء في وجه صاحبها الظالم المقيد لحريتها.

-**<u>فضاء اللامبالاة:</u>** "وأن ينتقل معها دعاؤها الحزين الذي يبتهج الناس به من مكان إلى مكان." صورة الفضاء هاهنا مبنية من عبارة "يبتهج الناس به" حيث يصبح صوت الببغاء، الدال على حزنها، جالبا للابتهاج والمسرة للآخرين.

المنارة للاستشارات

-**فضاء التمني:** وهو الفضاء المأمول الافتراضي، حيث الحرية والإنعتاق وارتفاع الظلم.

5.استنتاجات

إن المقاربة العرفنية التي عالجنا بها نص العينة، تعطينا لمحة ولو وجيزة ولكنها ملموسة، عن مدى الصعوبة التي يجدها الباحث عندما يتعامـل مع "المنهج" العرفني (méthode cognitive)، القائم أساسا على علم النفس اللغوي (psycholinguistique). كما تبين لنا مدى التعقيد الذي يجده الدارس عند تعامله مع العمليات التحليلة. ذلك علم النفس اللغوي يروم بناء نموذج للفهم (modèle de compréhension)، ونموذج للإنتاج (modèle de production).

وفيما يتعلق بالمقاربة العرفنية للفضاء(approche cognitive de l'espace)، فإننا لجأنا إلى نظرية الفضاءات الثلاث؛ وهذا انطلاقا من أن الخطاب السردي (النص السردي)، ما هو في جوهره إلا نشاط لغوي (activité langagière)، يضطلع بتقطيع أو تقسيم الفضاء الخارج لغوي (extralangagier)، طبعا وفق مبدأ الملائمة (pertinence)، إذ يتعلق الأمر بمكان معين. ولهذا تم الحديث عن الفضاء الفيزيائي، الفضاء المرجعي، والفضاء المعيش أو فضاء التفاعل الاجتماعي.

وقد تبين لنا أن الاستعانة بسيميائيات الفضاء أمر لا مناص منه. بيد أن التفكير في سيميائيات الفضاء يجب أن يكون انطلاقا مما تنتجه آليات الوصف والحركة كون الأمر يتعلق بتمثيل ذهني بالأساس. وهذا ما سمح لنا الحديث عن السمع، الشم، اللمس والجسد في المحصلة في بناء عرفني للفضاء.

الخاتمة المفتوحة

"نحو سرديات عرفنية" (vers une narratologie cognitive ?)، هذا ما خلصت إليه الباحثة "جان ماري شيفر" (Jean-Marie Schaeffer) من دراسة حديثة لها (2010) في مجال السرديات الحديثة، وعلى وجه التحديد حول " المقاربات الجديدة لأجل نظرية وتحليل نفس عرفني (analyse psycho-cognitive du récit) الحكاية. والملاحظ في العنوان المقترح أن علامة الاستفهام التي ذيلت بها الباحثة عنوان الواقع في خاتمة بحثها، لدليل على أن البحوث العرفنية في مجال السرديات الشكلية (narratologie formelle) والخطاب السردي، لا زالت في بداية عهدها. فهي لا تكاد تتجاوز العشر سنوات الفارطة.

ولهذا فهي تعتبر أن الدراسات النفس عرفنية للحكاية لا تزال في طور التجريب، والتطور. فالسرديات العرفنية وهي التي تسعى لأن تصبح علما مستقلا بذاته، تجد نفسها في بداية عهدها التأسيسي أنها بحاجة إلى الاستعانة بعلم النفس العرفني (psychologie cognitive) [36].

المنارة للاستشارات

لكن إشكالا منهجيا وإبيستيمولوجيا ينتصب بينهما، مصدره الطبيعة المختلفة لكلا المجالين: فعلماء النفس العرفني يؤكدون على المطابقة أو الملائمة الوصفية (adéquation descriptive)، بينما يهتم السرديون على الخصوص بالقوة المُفسرة للنظريات (puissance explicative des théories) [37] وتأمل الباحثة أن تعمل البحوث في السرديات العرفنة على بناء جهاز مفاهيمي وتحليلي، يثمر دراسات وممارسات تطبيقية وعملية توطد أساس هذا العلم ليصبح مستقلا قائما بذاته.

وهكذا ظهر لنا وأن المقاربة العرفنية للفضاء، لا بد لها من أن تمارس ضمن محورين للبحث. من جهة الأخذ في الحسبان لتشكل الفضاء ضمن الحركة التي تضطلع بها الحواس والجسد، ومن جهة أخرى محاولة الكشف عن النشاط السيميائي للفضاء التخييلي نفسه. هذا ما حالته هذه الدراسة عند معالجتها لفضاء الروائح، الصوت، واللمس. ولكن بشيء من الاقتضاب نظرا لطبيعة هذه الدراسة.

الهوامش:

(1) طه حسين: الأيام، الجزء الثاني، دار المعرف بمصر، ط25/ 1976، ص ص3/7.

(2) ينظر: Pierre Steiner,"Introduction cognitivisme et sciences cignitives", Labyrinthe (en ligne), 20, 2005(1) **http//Labyrinthe.org**

(3) ينظر: PIERRE COIRIER et autres, Psycholinguistique textuelle « Approche cognitive de la compréhension et de la production des textes ». Armand colin, France, 1996.

(4) ينظر: Jacques Fontanille : Sémiotique du discours, ed Pulim France1998, pp221/232 .

(5) ينظر: الخطاطة: معالم تاريخية مفهومية في: الأزهر الزناد: نظريات لسانية عرفنية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1،2010. ص ص 161/183.

(6) Benjamin Spector, « Linguistique générative et cognitivisme ; bref aperçu » Labyrinte (en ligne, 20/2005.

(7) ينظر: D.Sperber et D.Wilson : La pertinence, communication et cognition, traduction Francaise, ed Minuit, 1989.

(8) ينظر: «structure signifiante » in A.J Greimas et J.Courtes SEMIOTIQUE, dictionnaire raisonné de la Théorie du langage, ed classique Hachette, 1986.

(9) نفسه.

المنارة للاستشارات

(10) Roland Barthes: Introduction à l'analyse structurale du récit» communication n°8,pp1-7.

(11) Jean-Marie Schaeffer : Le traitement cognitif de la narration, in Approche nouvelles pour la théorie et l'analyse du récit. Coll Narratologies contemporaines, 2010, ppM215-231.

(12) نفسه.

(13) نفسه.

(14) in A.J Greimas et J.Courtes SEMIOTIQUE, dictionnaire raisonné de la Théorie du langage, ed classique Hachette, 1986.

(15) نفسه.

(16) نفسه ص133.

(17) نفسه. ص ص 358–359.

(18) نفسه 359.

(19) M.Merleau Ponty : Phénoménologie de la perception, ed Gallimard France 1945.

(20) نفسه ص164 .

(21) PIERRE COIRIER et autres, Psycholinguistique textuelle. pp.27-29.

(22) Alain Berthos : Les espaces de l'homme, ed. Jacob,2002 ,pp143/152/153

(23) محمد القاضي، وآخرون: معجم السرديات. دار محمد علي للنشر لتونس/ ط&/2010، ص 308.

(24) نفسه، ص309.

(25) A.J Greimas et J. Courtes SEMIOTIQUE, dictionnaire raisonné p 359.

(26) Gérard Genette : Figures 3, coll Poetique, ed du seuil, 1972..

(27) Ibid. p183

(28) معجم السرديات، ص 277 .

(29) A.J Greimas et J. Courtes SEMIOTIQUE, dictionnaire raisonné p 240

(30) M.Merleau Ponty : Phénoménologie de la perception. P119

(31) Roland Barthes : L'obvie et L'obtus. Essais critiques III, Ed du seuil, 1982, p217.

(32) Ibid

المنارة للاستشارات

(33) Ibid

(34) Gaston Bachelard : Poétique de l’espace, ed PUF. Paris France 1957. P27.

(35) الأزهر الزناد: نظريات لسانية عرفنية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1،2010. ص206.

(36) Jean-Marie Schaeffer : Le traitement cognitif de la narration. p 227.

(37) Ibid, p231.

المنارة للاستشارات

المنارة للاستشارات